رسالة اوكسفورد

الهاجريّة: بديل جديد للإسلام؟!

عبد النبي اصطيف

صدر مؤخرا عن مطبعة جامعة كامبريدج، كتاب جديد عن التاريخ الاسلامي المبكر ، لباتريشياكرون ومايكل كوك ، يحمل عنوان « الهاجرية » Hagarism ، وعنوانا فرعيا هو « صنع العالم الاسلامي » ، وقد أثار هذا الكتاب موجة من النقد العاصف امتزجت بكافة الوان السخرية المرة والتشفي الذي لايعرف الحدود . والحقيقة ان السبب في ذلك لايكمن في كون مؤلفي الكتاب استاذين محاضرين في جامعتين من كبريات جامعات بريطانيا (ب . كرون هي استاذة محاضرة في مادة التاريخ الاسلامي . كلية الدراسات الشرقية ـ جامعة اكسفورد ، وكانت من قبل زميلة باحثة في معهد فايبرج التابع لجامعة لندن ، ومايكل كوك هو استاذ محاضر في التاريخ الاقتصادي لمنطقة الشرق العربي ، في مدرسة الدراسات . الشرقية والافريقية ، جامعة لندن) وكون الناشر مطبعة جامعة كامبريدج ، وان أي نتاج يصدر عن هذه الجامعات الثلاث ، أو عن اساتذتها ينبغي ان يظفر باهتمام جدي ، ويستتبع نقاشا حادا ونقدا عاصفا على صفحات المجلات المتخصصة او ملحق التايمز الادبي . ولكن السبب في ذلك هو التطرف المغرض الذي يلف الكتاب كله ، والاختلاف الذي يصل الى حد البدعة والذي يقدم به التاريخ الاسلامي المبكر في فصوله .

ومهما اختلف الاراء في الكتاب وفي مؤلفيه، فان المرء يمكن ان يشير باطمئنان الى ان الموقف العام للمستعربين ولدارسي التاريخ الاسلامي العرب والاجانب في مختلف الجامعات البريطانية ، وفي الاوساط الثقافية الجادة ، كان الرفض المطلق للاطروحة الاساسية التي يقدمها . وبالطبع فان هذا الرفض امتزج كما ذكرت بالوان من النقد الموضوعي الهادىء، وأخرى من النقد الساخر الذي يذكرنا بالعاصفة التي اثارها كتاب الدكتور طه حسين « في الشعر الجاهلي » في عشرينات هذا القرن ، مع الفارق الكبير في نوعية الكتابين .

ولكن ماذا عن الكتاب الذي آثار هذه العاصفة ؟

اما عنوان الكتاب « الهاجرية » فهو نسبة الى هاجر ، أم اسماعيل وزوج ابراهيم عليهما السلام ، واما المقصود به فهو الدين الاسلامي الذي يفضل مؤلفا الكتاب أن ينعتا اتباعه بالهاجريين Hagarenes او

Hagarites ، واما النبي محمد صلى الله عليه وسلم فهو شخصية اسطورية، لفقها الهاجريون ، واما القران فهو نتاج مجهود الهاجريين الجماعي التراكمي ، واما الذي كان وراء هذه الاسطورة فهو المهدي Messiah عمر الفاروق المخلص Redeemer ، واما الصلة بين الهاجرية واليهودية فهي الصلة نفسها التي تربط بين السامرية واليهودية ، واما اساس هذه القصة ومصادر فصولها الغريبة فهي المصادر غير العربية والمعاصرة لظهور الدين الاسلامي والتي تشمل المصادر العبرية والسريانية والسامرية والنسطورية واليعقوبية والارمنية والقبطية وغيرها .

لست اريد في هذه المقدمة ان اتحدث عن الكتاب فلذلك موضع آخر ، ولكني اود أن أشير فقط الى ان هذا التيار من الدراسات التي تحاول ان تبالغ في حجم العنصر اليهودي والتوراتي في التاريخ القديم للشرق الادبي امر يبعث على التنبه ، ان هذا الكتاب . ماهو الا ثمرة واحدة لهذا المجهود(١) الذي لم يكتف فيما يبدو بمحاولة استغراق حضارة ايبلا (٢) التي تم اكتشافها اخيرا في تل مرديخ بخيوط عنكبوت التوراة واليهودية ، بل انه تعدى ذلك ليصل الى الدين الاسلامي والقرآن الكريم ليحوك هذه القصة ، وليعتبر هذا الهراء المدعي اسهاما ذا شان في تاريخ الاديان على حد قول سارجنت(٣) .

لقد اثار الكتاب كما ذكرت عاصفة من النقد في ملحق التايمز الادبي ، وفي بعض المجلات الاختصاصية الاخرى ، وسوف يحاول صاحب هذه السطور ان يقدم خلاصة لهذه المراجعات في مقالة قادمة فيما بعد . اما الان فانه سيتم الاكتفاء فقط بالاشارة الى ان النقد الاساسي الموجه الى هذا الكتاب هو نقد ينصب على منهجه ، وهو تناول جملة من الامور منها .

١ ـ الانتقائية المفرضة التي تمت فيها عملية مراجعة المصادر ، فالمؤلفان يهملان ـ فضلا عن المصادر العربية التي لايثقان بها مطلقا ـ مصادر اساسية في التاريخ الاسلامي بعضها لمستشرقين معروفين بطول باعهم في حقل الدراسات التاريخية الاسلامية ، ويكتفيان من المصادر غير العربية بمايتوافق وغرضهما الذي يقدمانه في مقدمة الكتاب كما سنرى بعد قليل .

٢ ـ محاولة المؤلفين وبنوع من الاصرار غير المسوغ على تهويد كل شيء في الدين الجديد حتى الاسماء والالقاب دون أي مبرر باستثناء الرغبة في جعل العنصر اليهودي يطغي على هذا الدين بكل جوانبه حتى الحضارية منها.

٣ ـ الغياب التام للبعد اللغوي عن الدراسة (ارجاعهما المهاجرين الى هاجر والى الخروج Exodus والمنفى Exile بدلا من الهجرة ، وامور اخرى كثيرة) (٤)

٤ ـ ان المؤلفين عندما يحاولان ان يقحما اليهودية في كل شيء ، لايوضحان فيما اذا كانا يفهمانها على انها طور قبل الاسلام ، أو انها عنصر فيه ، أو انها نموذج له ، أو انهما يجريان مقارنة بين الديانتين . يقول جوزيف فان اس Joseph van Ess

في خاتمة مراجعته للكتاب انه ليس هنالك من خطر كبير في ان يجد الدارسون الاسلاميون انفسهم مضطرين الى نعت انفسهم بالهاجريين. ويذكر سارجنت ان من المؤسف ان مطبعة كامبريدج – وهي التي قد نشرت من قبل ابحاثا قيمة لليال ، وبرادن ، ونيكلسون ، وآربري – قد نصحت بتملق المؤلفين بموافقتها على نشر هرائهما المدعي . وان المؤلفين في آرائهما البدعة التي آتيا بها انما كانا كمن يريد شهرة ذلك العبقري الذي اراد ان يربط بين المسيح والفطر .

وللمراجعين الحق في أن يختما نقدهما بما يريدان من غمز للمؤلفين ، فقد اساءا المنطلق، وبدآ من موقف معاد للعربية والاسلام في آن معا ، وبتطرف لم يسبق له مثيل في حقل الدراسات الاسلامية على الاطلاق . وعلى اي حال فقد طلب صاحب هذه السطور من الاستاذ آلن جونز (استاذ الدراسات القرآنية في كلية الدراسات الشرقية في جامعة اكسفورد) ان يخص قراء العربية بنقد موجز للكتاب فتفضل مشكورا بكتابة النقد الذي نقدم ترجمته ، لعل فيه حافزا لبعض المهتمين بالموضوع ممن طال بهم الصمت من الباحثين العرب ، على مناقشة الكتاب والرد على مافيه، او على الاقل لدفع هذه التسمية الجديدة التي يريد مؤلفا الكتاب ان يطلقاها على حملة الدين الجديد من العرب ، وليتنزعوا عن انفسهم لفظ الهاجريين .

---

(١) انظر كتاب J. wansbrough « دراسات قرآنية : مصادر التفسير الكتابي وطرائقه »

Quranic Studies : Sources snd Methods of Scriptural Interpretation, London Oriental Series : سلسلة
oxford University Press, 1977 المجلد (٣١)

على سبيل المثال ، ففيه يتخذ المؤلف موقف الملفق لعناصر عبرية في الاسلام ، ويحاول باستمرار أن يطبق المصطلحات العبرية على التاويلات العربية من اجل خلق جو عبري محيط بالقرآن الكريم .

(٢) كما في الكتاب الذي ظهر مؤخرا بعنوان « ايبلا » . Ebla

بقلم حاييم برمانت الذي وافق البعثة عن صحيفة الاوبزيرفور ، ومايكل وايتزمن المحاضر في اللغة العبرية والدراسات اليهودية في كلية الجامعة – لندن ، والذي يثيران فيه قضية العلاقة بين اليهودية والمملكة القديمة ايبلا ويسالان فيما اذا كان السوريون القدماء – على حد قولهما – يهودا ، أم ان اليهود القدماء كانوا يسكنون سوريا وكانوا سوريين ، وماهو تاثير ذلك على عراقة التوراة.

(٣) انظر مراجعة : R. B. Serjeant, للكتاب في :
« Jaurnal of the Royal Asiatic Society » 1978, Part I, P.78

(٤) انظر : Joseph vsn Ess,
« The Making of Islam » Tls September 8,1978, PP.997-8

الهاجريّة

بقلم : الن جونز (١)

يخبرنا مؤلفا الكتاب في مقدمة كتابهما « أن العرض الذي نقدم لأصول الاسلام ليس ذلك الذي يستطيع ان يقبله اي مؤمن ... لقد كتب هذا الكتاب لكفرة ومن قبل كافرين ، واقيم على ما يجب ان يبدو من منظور اي مسلم انه تقدير مغالى فيه لشهادة مصادر الكفرة »(٢) .

وكما يحدث عادة ، فان المؤلفين اخطاا مرماهما ، فعرضهما على الأرجح آيل في النهاية الى ان يكون غير مقبول من قبل اي امرىء ، وتوقيرهما لشهادة المصادر الكافرة ، مضافا اليه استعمالهما المتحيز ، والانتقائي الى درجة بعيدة ، للمصادر العربية يظهر هذا النقص في المحاكمة ، ويحيل انجازهما الى شيء غير ذي قيمة في نظر كل اولئك القادرين على اختبار متزن للتاريخ الاسلامي المبكر . وانني اذ اقرأ الموازييك المعقد لأفكارهما واوهامهما ، فان تعبيرين قرآنيين يتبادران الى ذهني مباشرة ، هما : « اضغاث أحلام »(٤) و « ضلال مبين »(٥) .

---

(١) انظر :

Crone, Patricia & Michael Cook, Hagarism : The Making of the Islsmic world, Cambriage university Pree, 1977 .

(٢) الاستاذ الن جونز Alamjones هو استاذ الدراسات القرآنية في كلية الدراسات الشرقية ، جامعة اكسبورد

(٣) انظر : Hagarism .. P. VIII.

(٤) القرآن الكريم ، سورة يوسف ، الاية ٤٤ .

(٥) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، الاية ١٦٤ .

يقدم المؤلفان موقفهما الاساسي في بداية الفصل الاول عندما يقولان :

« من المعلوم تماما أن المصادر الاسلامية ليست مبكرة بشكل يمكن التدليل عليه ، وليس هناك أي دليل صلب على وجود القرآن في اية صورة قبل العقد الاخير للقرن السابع . كما أن الحديث الذي يضع هذا الوحي الغامض في اطاره التاريخي لم يخضع للتمحيص قبل منتصف القرن الثامن . وهكذا فان تاريخية التراث الاسلامي خلافية الى حد ما : فبينما لا توجد اية اسس داخلية مقنعة لرفضه ، ليس هناك اية اسس خارجية مقنعة لقبوله على قدم المساواة . وفي مثل هذه الظروف فانه ليس من غير المعقول ان يمضي بالطريقة المعهودة الى تقديم رواية محققة بشكل معقول للتراث كحقيقة تاريخية . ولكن ، وعلى قدم المساواة ، فان من المعقول اعتبار الحديث وكأنه دون اي مضمون تاريخي محدد ، والتأكيد على أن ما يفهم انه روايات للحوادث الدينية في القرن السابع غير ذات نفع الا في دراسة الافكار الدينية في القرن الثامن . ان المصادر الاسلامية تقدم مجالا رحبا لتطبيق هذه المداخل المختلفة ، ولكنها تقدم القليل مما يمكن استخدامه بأية طريقة حاسمة للتحكيم فيما بينها . وهكذا فان الطريقة الوحيدة للخروج من هذه المعضلة هو المضي خارج التراث الاسلامي كله ، والبدء من جديد »(٢) .

ويبدو من هذا أن المؤلفين يقيمان تسويغهما لمحاولتهما المضي خارج التراث الاسلامي والبدء ثانية على افتراضين اثنين : هناك اولا تأكيدهما أن « ما يفهم انه روايات للحوادث الدينية في القرن السابع غير ذات نفع الا في دراسة الافكار الدينية في القرن الثامن » وهناك ثانيا اصرارهما على أن ليس هنالك اية اسس خارجية مقنعة لقبول تاريخية التراث الاسلامي .

والاولى من هاتين النقطتين قائمة على افتراضين أولهما أن آراء غولدزيهر Galdziher وشاخت Schacht حول اصالة الحديث

---

(٦) انظر : Hagarism ..., P. 3.

وتطور الشريعة الاسلامية المبكر صحيحة . وثانيهما انه يمكن التوسع في تطبيق هـذه الآراء لتشمل جميع المواد التراثيـة حول التاريخ المبكر للاسلام ايضا . وحتى اذا ما كان لنا أن نقبل الاول من هذين الافتراضين ــ وليس كل المستشرقين يفعلون ذلك في اي حال من الاحوال ــ فليس هناك أية محاولة جدية للافتراض الثاني حتى الآن ، ولست أعرف اية اسس معقولة لقبوله . وهناك آية يمكن أن توجز وضع المؤلفين :

« وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً »(٧) .

ويمكن للمرء ان يضيف ايضا انه اذا ما كان لهذا التوسع في آراء غولدزيهر وشاخت أن يقبل ، فان المصادر الاسلامية ينبغي أن تعالج على انها تشير بالاحرى الى الامور المتأخرة وليس للمبكرة . ومع هذا فاننا نجد أن المؤلفين ــ على الرغم من انهما يقيمان آراءهما على هذا التوسع بشكل عام ــ لا يترددان في استخدام المصادر العربية في سياق القرن السابع عندما يجدان أن من المناسب يفعلا ذلك .

كنت اتمنى لو أن المؤلفين قد حددا بدقة ما الذي عنياه بتاريخية التراث الاسلامي ، وعندها يكون التحقق من زعمهما بأنه ليس هناك اية اسس مقنعة لقبولها أيسر . فاذا ما كانا يعنيان انه ليس هناك اية روايات خارجية مفصلة تعزز الرواية التفصيلية للتاريخ الاسلامي المبكر كما قدمت في المصادر الاسلامية ، فانهما بالطبع على صواب . ولكن من غير المعقول تماما توقع هـذا . وعندما ننظر الى حوادث مشابهة لانبثاق الاسلام ، نجد أن النقص في الدليل المفصل طبيعي . وهناك قطع من الدلائل الخارجية (عامة بشكل رئيسي ، ونوعية في بعض المناسبات) حول انبثاق الاسلام ، بعضها حيوي تماما . والواقع أن المؤلفين يشيران الى واحد من اكثرها اهمية ، وهو بردية يونانية ــ عربية ، لها تاريخ يوناني يوافق عام ٦٤٣ م ، وآخر عربي هو ٢٢ هـ . وفترة تحدد في عام

(٧) القرآن الكريم ، سورة النجم ، الاية ٢٨

٦٢٢ م بوثيقة مبكرة كهذه ، هي في رأيي قطعة هامة ومقنعة من الدلائل الخارجية .

وهكذا فانه اذا كنا نعتبر أن المقدمة الاساسية للمؤلفين غير صالحة، فان الكتاب كله غير مقبول ، وليس هناك من حاجة لمناقشته اكثر من هذا . وعلى أي حال فربما كان جديرا بالاضافة انه حتى لو كان لنا أن نقبل بأطروحة المؤلفين ، فانه من غير المعقول أن نعزو قيمة كبيرة للمصادر غير العربية ــ اليهودية ــ والسامرية Samaritan ، واليعقوبية ، والنسطورية ، والارمنية ، والقبطية ــ الا بشق النفس . فهذه المصادر، رغم أنها فيما يبدو محددة تماما ، تتضمن معلومات تظهر مقدارا معتبرا من الاتفاق فيما بينها ، ومعلومات اخرى على خلاف حاد مع بعضها بعضا. ان المؤلفين يحاجان أن نقاط الالتقاء مثيرة ، وأن المصادر صالحة (وهذا على نقيض بين من آرائهما في المصادر الاسلامية) . مهما كان الامر ، فان هذه المصادر ذات قيمة ضئيلة ، ويبدو أن معلوماتها العامة ناجمة عن جهل عام بالديانة الجديدة عند غير المسلمين وتحيز ضدها .

وأخيرا ينبغي علي أن أذكر أن استعمال المؤلفين للمصادر العربية مشكوك فيه غالبا . وسأعطي مثالين فقط على ذلك ، فهما يقولان :

« نحن نأخذ النسبة القرآنية المتكررة للكتاب الى النبي ــ حتى في دوره كنذير ــ على أنها ثانوية ، ولا تشمل أي نذير سابق »(٨) .

أو لم يقرأا عبارات ك « صحف ابراهيم وموسى »(٩) أم انهما يعتقدان أن ابراهيم وموسى كانا نبيين وليسا منذرين ؟ تلك « قسمة ضيزى »(١٠) .

---

(٨) انظر : Hagarism ..., P. - 66

(٩) القرآن الكريم ، سورة الاعلى ، الاية ١٩ .

(١٠) القرآن الكريم ، سورة النجم ، الاية ٢٢ .

وهما يزعمان أن التركيب الوارد في الوثيقة المعروفة بـ « دستور المدينة » : « وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين » يفيد أنه كان هناك أمة واحدة وكان المسلمون واليهود فيها أعضاء على وجه السواء . وهذا ليس هو التفسير الطبيعي للتركيب(*) .

آمل أن اكون قد أعطيت سببا معقولا لاعتقادي في أن هذا الكتاب لا يستحق انتباها جديا ، ومن الخير للجميع ، بما فيهم المؤلفين ، أن يصبح الكتاب « نسيا منسيا »(١١) .

---

* التفسير الطبيعي للتركيب هو : « جماعة الى جانب جماعة المؤمنين » وانظر : Hagarism ..., P. - 66

(١١) القرآن الكريم ، سورة مريم ، الاية ٢٣ .